

Enthusiasm and Manifestations of Heroism in the Poetry of Durayd ibn al-Šimmah



Received: 28/03/2025; Accepted: 12/04/2026

رزيقة رويقي*

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة (الجزائر). raziqa.rouigi@univ-tebessa.dz

الحماسات وتجليات البطولة في قصيد دريد بن الصمة

الكلمات المفتاحية:

حماسة؛
بطولة؛
فخر؛
مدح؛
هجاء.

ملخص

شكلت الحرب والبطولات مادة أساسية لدريد بن الصمة، ينهل منها أشعاره ويخلد عبرها تاريخ انتصارات قومه وعشيرته، فكان بذلك فارس هوازن وشاعرها المنافح. وقد طبعت قصائده بروح الحماسة ومعاني البطولة من خلال جملة أغراضه الشعرية التي طرقها بأسلوب فني فذ، أهله ليكون شاعر الحرب في العصر الجاهلي. كما أن لمكانته القبلية وفروسيته أثرها البالغ في ذبوع شعره وانتشاره بين قبائل العرب، فكان أشد على أعدائه من نائرة الحرب، حيث يقاتل بلسانه وسيفه في مشهد حماسي مثير. لذا طرقتنا هذا البحث لنستجلي موضوع الحماسة وتجليات البطولة الحربية والأخلاقية في قصيد "دريد بن الصمة" معتمدين على قراءة تحليلية لأبرز موضوعاته الحماسية، ومدى تأثيرها على المستوى الفردي والجماعي.

Abstract

The themes of war and heroism were central to the poetry of Durayd ibn al-Šimmah, from which he drew inspiration for his verses and immortalized the history of his tribe's victories. He thus became the knight and poet of Hawazin, ardently defending his people. His poems were imbued with the spirit of enthusiasm and the meanings of valor, expressed through various poetic themes that he addressed with a unique artistic style, earning him the title of the "poet of war" in the pre-Islamic era. Furthermore, his tribal status and chivalry greatly contributed to the widespread recognition of his poetry among Arab tribes. His words were often more devastating to his enemies than the outbreak of war itself, as he fought both with his sword and his tongue in a stirring, impassioned display. This study, therefore, seeks to explore the theme of enthusiasm and the manifestations of both military and moral heroism in the poetry of Durayd ibn al-Šimmah through an analytical reading of his most prominent poems, examining their impact on both individual and collective levels.

Keywords:

Enthusiasm;
Heroism;
Pride;
Praise;
Satire.

* Corresponding author, e-mail: raziqa.rouigi@univ-tebessa.dz

Doi:

I - مقدمة

ارتبطت حياة العرب في الجاهلية بطابع البيئة الصحراوية القائم على الترحال والبحث عن مواطن الماء والكلاء، وتحمل مختلف المشاق والصعوبات من أجل البقاء، فُجِّل العربي بذلك على صفات القوة والصبر والشجاعة والنجدة. كما أعلن وفاءه المطلق لأنظمة الحياة العربية في تلك الفترة، وعلى رأسها النظام القبلي القائم على العصبية القبلية والدفاع عن القوم والعشيرة. ومنه تفجرت نائرة الحروب بين مختلف القبائل في شبه الجزيرة العربية، وراحت الثارات والغزوات تفتك بالمجتمع القبلي وتقويه في الوقت ذاته.

في خضم أمواج الحروب والقتال كان للحياة الأدبية والجاهلية حضورها الخاص وطابعها المميز، وذلك لارتباطها الوثيق بمتقلبات الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها. وقد تنبأ الشعر ريادته في تاريخ الأدب، إذ حمل لواء تقبيد الوقائع وتخليدها في الذاكرة العربية، فراح يساير الحروب ويصوّر معالم الحياة حتى غدا ديوان العرب. وأصبح الشاعر فارساً ينافح بسلاحه كما يدافع بشعره. وعليه غلبت الحماسة على مختلف موضوعات الشعر العربي، فكانت الحرب والبطولات ميداناً خصباً للتباري والمنافسة.

ودريد بن الصمة شاعر وفارس خلّد تاريخ قبيلته الحربيّ في معظم أشعاره وقصائده، فطُبعت بطابع البطولة والفروسية، وتقنن في تأجيح العواطف والحث على القتال من أجل القبيلة ضمن موضوعات شعرية مختلفة، كالفرح والمدح والهجاء والوصف، وهو ما دفعنا ونحن نقرأ ديوانه الشعري إلى طرح سؤالنا المحوري: كيف تجلت الحماسة ومعاني البطولة في نصوص دريد بن الصمة؟ سيما وأن قارئ قصيد دريد يقع على معاني مختلفة للحماسة والبطولة؛ حيث لم تكن البطولة الحربية هي أقصى ما يعبر عنه الشاعر، بل لم تكتمل تلك البطولة إلا في ظل المثل العليا والأخلاق الرفيعة التي يحياها العربي باسم البطولة الأخلاقية.

والحقيقة أنّ تصفحنا لموضوعات الحماسة في الشعر الجاهلي أمكننا من الوقوف على عديد الأبحاث والدراسات السابقة سواء ما تعلق منها بالمقالات أو الكتب، منها كتاب: الفروسية في الشعر الجاهلي لنوري حمودي القيسي، ومقال صورة البطولة في شعر دريد بن الصمة لعودة بن سويلم الشمري. أما عن الدراسة الأولى فقد كانت مسحا لمختلف موضوعات الحماسة في الشعر الجاهلي بصورة خاصة، ولم يكن لدريد بن الصمة سوى الحظ الأقل في حضوره النصي، وفي الدراسة الثانية هدف صاحب المقال للتركيز على مفاهيم الصورة الحربية في نماذج شعر دريد دون البث في أغراض الحماسة. لذا اعتمدنا وبشكل خاص على جهدنا في تقصي موضوع الحماسة وأغراضها في ديوان الشاعر. لنصل في ختام بحثنا إلى جملة من النتائج أبرزها:

- ارتبطت الحماسة في شعر دريد بن الصمة بميدان الحروب وتاريخ الانتصارات والبطولات، فكانت قصائده الحماسية أشد على العدو من وقع النبال وحد السيوف.
- نوع دريد في أغراض حماسه فزاج بين الفخر والمدح والهجاء والوصف في قالب فني يجمع بين واقعية الصورة وعمق المخيلة.

II- شعر الحماسة: قراءة في المصطلح

01- الحماسة في اللغة:

من الجذر اللغوي حَمَسَ وتعني اشتد، حَمَسَ بالشيء علق به، والتحمّسُ التشدد، أما الحماسة فهي المنع والمحاربة، ورجل حمسٌ وحَمَسَ أي شجاع. وقال ابن الأعرابي:

كَأَنَّ جَمِيرَ قَصَاتِهَا إِذَا مَا حَمَسْنَا، وَالْوَقَايَةَ بِالْخَنَاقِ

وتحمّسَ القوم تحامُساً وجماساً: تشادوا واقتتلوا¹.

وفي القاموس المحيط << الحماسة الشجاعة، والأحمسُ الشجاع كالحَمِيسِ والحَمَسُ والعام الشديد >>².

وعليه يدل الجذر اللغوي للكلمة على عدة معاني متقاطعة كالشدة والبأس والقتال، والتشدد في الأمور، ما يعني أن الفعل اللغوي يرمي بظلاله إلى جميع السياقات اللغوية وغير اللغوية التي قد توظف فيها اللفظة، أو إحدى اشتقاقاتها توظيفا دلالياً مناسباً كما هو الحال في البيت الشعري أعلاه.

02- الحماسة في الشعر

لا شك أن المعنى اللغوي لمصطلح الحماسة يدفع القارئ لطرح تساؤله المشروع حول قضية الحماسة في الأدب والشعر على وجه الخصوص، فهل الحماسة الشعرية تعني القصائد القوية والشديدة من حيث شكلها أو موضوعها؟ وهل لقائلها دور في ذلك أم لا؟

إن المتتبع لتاريخ الكتابة والتأليف يجد أن أول من اهتم بإفراد شعر الحماسة في كتاب، وتبويبه تبويبا خاصا هو الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (190هـ - 231هـ) في مصنفه الشهير "ديوان الحماسة" حيث أفرد لشعر الحماسة أول أبواب المصنف، ثم تبعها بأبواب أخرى وفقا لموضوعات الشعر وأغراضه ومعانيه من مثل: باب المراثي، باب الأدب، باب النسيب... وغيرها.

يقول ابن الشجري: «الحماسة في عالم الأدب: اسم مجازي لمجموعة من المختارات الشعرية، سميت به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء، لأن الباب الأول من هذه المختارات يضم قصائد ومقطوعات في الشدة والشجاعة. وكتب الحماسة لا تعدو كونها حلقات في سلسلة طويلة من كتب المختارات الشعرية في عالم الأدب العربي»³.

ورغم أن أبا تمام غد من شعراء عصره المحدثين، إلا أنه يُستشهد بشعره الذي يرويه، وكان مصنفه "ديوان الحماسة" نهجا لغيره من الشعراء في الرواية والاختيار والتصنيف، وزخرت المكتبة العربية بتأليف ضخمة من قبيل "ديوان الحماسة" هُيئت لحفظ الشعر وتبويبه وسبكه وترصيعه.

لطالما ارتبطت حياة العرب بالحرب والفروسية، فقد كانت حروبهم وسام شرف في تاريخ عصبيتهم القبلية ودستورا نبيلًا سطر نمط معيشتهم في بيئة تعترف بقوة السيف والقول معا. ولما كان شعراء العرب هم فرسانها، تغنى هؤلاء بأمجادهم وبطولاتهم ومآثرهم، فكانت أشعارهم وقصائدهم سجلا حافلا، ومعلما من معالم حياة الدماء التي رمزت للبطولة والشرف. فصُقلت السيوف والرماح وشحذت الهمم والنفوس، وتحمست القلوب لخوض غمار الوغى والتباري في النيل من العدو، وأخذ الثأر. وقد غد هذا النوع من الشعر أكثر الأشعار الحماسية التي تفعل فعل السيف والرّمح في ساحة الحرب، لذا وجدنا دواوين الشعر العربي القديم - لاسيما العصر الجاهلي والإسلامي - ثرية بقصائد الحماسة والفروسية. والحماسة كفن >> من أبواب الشعر العربي وموضوعاته وفيها الإشادة بالأمجاد والانتصارات في الحروب، والحدق البالغ على الخصوم، والتغني بالمثل الرفيعة من كرم ووفاء وغير ذلك»⁴.

ولعل هذا من أهم أسباب كثرة الشعر في موضوع الحرب والحماسة؛ حيث كانت الحرب والانتصارات وقودا يشعل مواهب الشعراء ويرسل ألسنتهم الفصيحة للتغني والتحمس، لذلك وجدنا أبا سلام الجمحي يذهب إلى أن قلة الوقائع الحربية تؤدي بالضرورة إلى قلة الشعر في هذا الميدان: >> فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار»⁵، لذا كان قانون الثأر أكثر القوانين قداسة لدى العرب في الجاهلية، وهو ما يضمن استمرار الحروب وسرعة نشوبها بين العشائر والقبائل، إنها كما صورها زهير بن أبي سلمى في معلقته حين قال:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ

مَتَى تَبَعْتُوهَا تَبَعْتُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرَّ

فَتَعَزَّكُمْ عَرِكَ الرَّحَى بِثِقَالِهَا وَتَلْفَحُ كِشَافاً ثُمَّ تُنْتَجِ فَتُنْتِجُ⁶

إنها فتيل يسهل إشعاله، ورحى تطحن وتدمر كل ما يدخلها، ورغم بشاعتها وسوء أثارها على الفرد والمجتمع إلا أنها مدعاة للفخر والقول في آن. فوجدنا الشعراء يواكبون حروب عشائريهم وثاراتها فلا يفترون، وكانت قصائدهم الحماسية مدعاة للفخر وشحذ الهمم والتغني بها في الأولين والآخرين. فهذا عنتر بن شداد فارس بني عبس وشاعرهم فحل من فحول الشعراء دافع عن عشيرته إلى آخر رمق من حياته، وكان مثالا للبطولة والإباء والحماسة، وكذلك الشاعر البطل دريد بن الصمة فارس هوازن وشاعرها الحماسي، الذي زاد بشعره وسيفه عن أسرته وقبيلته سنوات طويلة؛ عمر طويلا في الجاهلية وكان شاعر الحماسة بلا منازع كما أدرك الإسلام ولم يسلم حتى أدركه الموت يوم حنين⁷، بل لقد بلغت الحماسة الشعرية لدى هؤلاء القوم مبلغ أن تحرض المرأة بشعرها على القتال والأخذ بالثأر كما فعلت أم دريد بن الصمة بعد قتل ولدها عبد الله، إذ قالت شعرا حماسيا تحرض فيه دريدا على القتال وأخذ ثأر أخيه، فردّ عليها يقول:

تَكَلَّمْتُ دُرَيْدًا إِنْ أَتَتْ لَكَ شَتْوَةٌ سِوَى هَذِهِ حَتَّى تَدَوَّرَ الدَّوَائِرُ

وَشَيَّبَ رَأْسِي قَبْلَ حَيْنٍ مَشْيِيهِ بِكَأُوكِ عَبْدَ اللَّهِ وَالْقَلْبُ طَائِرُ

إِذَا أَنَا حَادَرْتُ الْمَنِيَّةَ بَعْدَهُ فَلَا وَأَلْتَ نَفْسٌ عَلَيْهَا أَحَادِرُ⁸

فهي أم تكلّي يعاهدها دريد بتكله هو الآخر، إن لم يأخذ بثأر أخيه؛ حيث لم يعد يحاذر الموت ولا يخشى المنية بعد قتل أخيه، إنه يعيش فقط ليشهد يوم الثأر لابنها، ويرى قاتل أخيه مقتولا بيده. لقد بات سفك الدماء غريزة لدى العربي في الجاهلية؛ حيث >> لا يصبرون عليه وهم دانما عطاش لرويته وخاصة إذا كان إدراكا لثأر، فإنهم يحرمون على أنفسهم كل متاع الحياة، فلا يقربون الخمر ولا النساء، ولا يصلحون أي شأن من شؤونهم في الثياب أو الزينة. بل يفزعون للحفيظة ولا تزال صدورهم تغلي بالموجدة، ومن حولهم نساء العشيرة يبيكون القتل ويستثيرون ببطولته ومناقبه رجالها حتى يغسلوا عنهم عار قتله بما يستحقون من دماء قاتله ودماء قومه<<⁹. لقد تينت قصائد الحماسة هذه الأفكار وأمنت بقانون الثأر وتسلسل الحروب، فلم يتوان أصحابها في سبك وترصيع شعرهم ليبلغ مبلغه في النفوس والعقول، فتثور الثائرة وتثور رحي الحرب.

III- البطولة في الشعر العربي القديم

01- مفهوم البطولة:

ورد مصطلح البطولة في أغلب المعاجم والقواميس تحت مادة بَطَلَ والتي تعني الذهاب والضياع، يقال بَطَلَ دُمُ القَتِيل بمعنى ذهب دمه بَطْلًا، إذا لم يُؤخذ بثأره ولا ديتته، أما بَطَلَ بضم الطاء، شَجُعَ واستبسل فهو بطل من البطولة والجمع أبطال¹⁰. وعليه تكون البطولة بمعنى الشجاعة واليسالة، فهو يدفع بنفسه ودمه من أجل العشيرة والجماعة. وزاد الفيروزآبادي معنى دقيقا حين ربط بطولة الرجل بساحة الوعى وتحمل جراحه، يقول: >> وَرَجُلٌ بَطْلٌ محرّكة كشدّادٍ بين البطالة والبطولة شَجَاعٌ تَبَطَّلُ جَرَأَتُهُ فلا يَكْتَرُثُ لها أو تَبَطَّلُ عنده دماء الأقران<<¹¹. إنه المعنى الذي يرمز إلى الفارس العربي حين كان يدخل ساحة المعركة ويقاتل ببسالة متناسيا جراحه وآلامه في سبيل تحقيق النصر والأخذ بالثأر.

وإذا كانت البطولة لدى بعض الأمم الغربية قد ارتبطت بالخوارق والأساطير، حيث كانوا يلبسون البشر لباس الأبطال الخياليين والخارقين بأفعالهم وإنجازاتهم، فإننا نجد العربي قد تغنى بالبطولة بمعناها البشري التي لا تُخرج الإنسان عن قدرته ومميزاته، لذا ارتبطت بالفروسية والشجاعة والإقبال، كما ارتبطت بمعاني أخلاقية أخرى كالنجدة والكرم والإباء، يقول شوقي ضيف: إنَّ >> العرب لم يعرفوا قديما البطولة المسرحية ولا البطولة الأسطورية، وإنما عرفوا البطولة الواقعية، بطولة يرتفع فيها صاحبها عن الأشخاص العاديين من حوله بقوته وبسالته وإقدامه وجراته وتغلبه على أقرانه، وهو منهم /.../ وهي بطولة تستند على قوة الجسد والبأس الشديد، بأسا يدفع غائلة الوحش والقبائل المجاورة بكل ما استطاع البطل العربي القديم في صحرائه من اتخاذه عُدة له في القتال<<¹². ولعل من أهم عدته سلاحه وفرسه التي لا يستغني عنها في صيد أو قتال، لذا كان الفارس والبطل وجهان لعملة واحدة، هي الرجل الشجاع المدافع عن قبيلته، محققا انتصارات كبيرة خلدها التاريخ واعترفت بها الأجيال وتغنى بها القصيد.

كما أن بطولة الفارس العربي تختلف عن بطولة غيره من الأمم الأخرى، وذلك لطبيعة البيئة التي ينشأ فيها ويترعرع بين أحضانها؛ لقد بُنيت حياة العربي في العصر الجاهلي على صراع دائم >> بينه وبين بينته القاسية، لأن كل ما فيها يوحي بالقوة، وينطق بأن البقاء للأصلح والأقوى، وكان الطبيعة قد أعدت الجزيرة العربية هذا الإعداد، لتهب لشعبها العريق السجيا الكريمة التي لم يفسد الزمن طبائعها، والخلق النبيل الذي أصبح عنوانا للبطولة ورمزا للمثل الرفيعة الشامخة<<¹³. لقد أكسبت البيئة ومناخها القاسي العربي صلابة وجلدة وشجاعة بطولية نادرة مقرونة بدورها ببطولات أخرى، تشمل التحلي بالشمال الرفيعة والأخلاق النبيلة كالجلم والصبر والعزم والحزم والكرامة، وهي بطولة نفسية غالية تغذي البطولة العربية وتزيدها ثباتا وقوة¹⁴.

02- البطولة في الشعر

إنَّ المتتبع لتاريخ الأمجاد والبطولات العربية التي حفظها الشعر وتغنى بها، يجد أن البطولة ارتبطت بمعنى الفروسية لدى الشاعر العربي، حيث سطرت مجموع القصائد المروية معنى البطولة والفروسية الحقيقية وما يترتب عليها من خلق وتضحيات وآثار إيجابية على الفرد والمجتمع، فهي مظهر من مظاهر الحياة العربية نشأت استجابة للظروف الاجتماعية القبلية، ولواقع الأخلاق والحروب، أخلاق عربية جبل عليها الفرد، فأسهمت في تطور هذا المظهر ليغدو ظاهرة عربية سامية لها تقاليد وأعرافها وفلسفاتها الأبطال الذين حملوا لواءها وضحووا بأنفسهم، فكانوا نماذج حية للكرم والبطولة والفروسية، وغيرها من مكارم العرب¹⁵.

إلى جانب كون البطولة طابعا مميزا لحياة العرب في الجاهلية، فإنها وبالمثل >> مجموعة المثل الرفيعة والبطولات الحربية التي ترددت على ألسنة الشعراء الفرسان وتجاوبت أصدائها في أطراف الصحراء الواسعة وامتدت معانيها امتداد الرمال فكانت أسلوب الحياة لمختلف الناس دون تمييز، يعبرون عنها بما يتناسب ومفهومها

عندهم»¹⁶. لقد شهد التاريخ لفرسان العرب ببطولات إنسانية نادرة تغنوا بها في أشعارهم وخطبتهم وأمثالهم وحكمهم وكلما كانت الحياة أصعب، كلما ولد لها من يضارع محنها بجلدة وصبر نادريين. ولأن قانون العشيرة والقبيلة قائم على التعصب والأخذ بالثأر، ظلت حياة الجاهليين واثرة موتورة، فمن طالب للثأر إلى أخذ للوتر وهكذا، تبارى الأبطال الفرسان في ساحات الحروب يهبون أنفسهم للموت في سبيل القبيلة والخلود. يقول "دريد بن الصمة" فارس هوازن:

أَبَى الْقَتْلُ إِلَّا آلَ صِمَّةَ إِنَّهُمْ أَبَوْا غَيْرَهُ وَالْقَدْرُ يَجْرِي إِلَى الْقَدْرِ
فَأَمَّا تَرِينَا لَا تَزَالُ دِمَاؤُنَا لَدَى وَاتِرٍ يَشْقَى بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فَأَتَا لِلْحَمِّ السَّيْفُ غَيْرَ نَكِيرَةٍ وَنَلَحَّمُهُ حِينًا وَلَيْسَ بِذِي نُكْرِ
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتِرِينَ فَيَشْتَفِي بِنَا إِنْ أَصَبْنَا أَوْ نُغَيِّرُ عَلَى وَتِرٍ¹⁷

وهو بذلك يصور شدة بأسه وبأس قبيلته وقوة صبرهم على مصائبهم، كما أن فروسيتهم وبطولتهم جعلتهم دائمي الحروب والقتال، حتى صار أعداؤهم لحما لسيوفهم ورماحهم، وصارت قبيلته أيضا لحما وطعاما لأعدائهم، فلا يفترون ولا يسأمون القتال والبطولة. وفي معنى بطولة العفة والكرامة والإباء يضرب لنا الشنفرى أفضل الأمثلة على فرسان العرب الذين عاشوا في صحراء تموج بالوحوش والأعداء يقول:

أَدِيمُ مَطَالِ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيَّةَ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَادْهَلُ
وَأَسْتَفُّ ثَرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يُرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مَنطُولُ
/.../

وَأَطْوِي عَلَى الْخَمَصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطُةَ مَارِي تَغَارُ وَتُقْتَلُ¹⁸

إنه عدو من طبيعة أخرى، الجوع الذي يعصف بأحشائه، ويحاول قتل قواه وشل حركته، غير أن شجاعة وجلدة الشنفرى تجعله يقاوم الجوع وينتصر على أعدائه من بني البشر الذين يتربصون به في تلك الصحراء القاحلة. لقد زحرت دواوين الشعراء بقصائد حماسية بطولية يفتخر فيها الشعراء الفرسان ببطولاتهم وانتصاراتهم المتتالية، كما يفتخرون بعدد القتلى في حروبهم، فكأما طالت الحرب وزاد القتل كان ذلك مدعاة لتفجير الطاقات الشعرية وتخليد المآثر وأسماء الأبطال الذين يموتون دون دماء عشيرتهم وعزها. يصور لنا ديوان الشعر الحماسي في العصر الجاهلي ارتباط البطولة والفروسية بمعاني الشجاعة في الحرب والصبر في البلاء، والعفة في المكسب، والذود عن الحمى وإغاثة الملهوف وكل ما يتطلبه الحس الإنساني، لترتبط البطولة في الشعر بجانبين اثنين: أحدهما يتعلق بالحرب ومعطياتها القتالية، والثاني يرتبط بالأخلاق والمثل العليا التي جُبِلَ عليها العربي دون غيره. والبطل فارس شجاع تدفعه فروسيته إلى تقلد المثل العليا في السلم والحرب، فالحرب والمثل بناء واحد ومحتوى واحد¹⁹. ولنا في شعر حاتم الطائي مثال الفارس الجواد الذي جمع بين البطولة في القتال والجود في العطاء:

إِذَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ قَامَ بَعْدَهُ نَظِيرٌ لَهُ يُغْنِي عَنْهُ وَيُخْلِفُ
وَإِنِّي لِأَقْرِي الضَّيْفَ قَبْلَ سُؤَالِهِ وَأَطْعُنُ قَدَمًا وَالْأَسِنَّةَ تَرَعُفُ
وَإِنِّي لِأَخْزَى أَنْ تُرَى بِئِي بَطْنَةٌ وَجَارَاتُ بَيْتِي طَاوِيَاتٌ وَنُحَفُ²⁰

لقد بلغ الجود والكرم بحاتم الطائي إلى أن يكون ملازما له في حربه وقاتله، فالكرم بطولة لأنه انتصار على النفس والجشع، كما هي بطولة النبل من العدو في ساحة الوغى، إنهما مظهران لبطولة واحدة هي فروسية الشاعر وشجاعته.

IV- الحماسة وتجليات البطولة: تعدد الأغراض في شعر دريد بن الصمة 01- الحماسة الفخرية:

تعددت أغراض الشعر في قصائد دريد بن الصمة؛ حيث نجده يطرق مختلف المواضيع والأغراض في إطار حماسته والتغني ببطولاته وبطولات عشيرته، ولعل أبرزها تجليا الحماسة الفخرية، أين عانق غرض الفخر موضوع الحماسة فكان جل افتخار الشاعر بنفسه، وأبطال عشيرته وإنجازاتهم الحربية وبطولاتهم الميدانية طويلة المدى، وشدة بأسه وبأس إخوته في القتال.

لقد جبل دريد بن الصمة على الفروسية، فكان فارس هوازن الأول، ونذر نفسه لنصرة قومه، فخاض حروبا طويلة حقق فيها الغلبة والنصر المؤزر، وهو ما دعاه إلى التفاخر بنفسه ومآثره العظيمة، إضافة إلى شجاعة قومه وفضائلهم فهم وسيلته إلى الغزو، ويده التي يبطش بها لينال من عدوه. من هنا اتسع مجال فخره الحماسي ليتوزع ضمن اتجاهين متميزين: الأول الاتجاه الذاتي والثاني الجانب القبلي. وقد ارتبط اتجاه الفخر الذاتي بفخر دريد بمآثره وصفاته الشخصية كبطل وفارس، وهو ما يمثل معظم شعره الذي بين أيدينا، ليرتبط الجانب القبلي بفخر الشاعر بقبيلته وبطولاتها، والملاحظ أن فخر الشاعر بنفسه لا ينفك عن فخره بقبيلته التي هي جزء لا يتجزأ من بطولته وإنجازاته²¹. جاء في قصيدته الحماسية المشهورة قوله مفتخرا بقوته في أيام شبابه وشيبه:

يَا هِنْدُ لَا تُكْرِي شَيْبِي وَلَا كِبْرِي فَهَمَّتِي مِثْلُ حَدِّ الصَّارِمِ الدَّكْرِ

وَلِي جَنَانٌ شَدِيدٌ لَوْ لَقِيتُ بِهِ حَوَادِثُ الدَّهْرِ مَا جَارَتْ عَلَى بَشَرِ

فَمَا تَوَهَّمْتُ أَنِّي خُضْتُ مَعْرَكَةً إِلَّا تَرَكْتُ الدِّمَاءَ تَنْهَالُ كَالْمَطَرِ

كَمْ قَدْ عَرَكْتُ مَعَ الْأَيَّامِ نَائِبَةً حَتَّى عَرَفْتُ الْقَضَا الْجَارِي مَعَ الْقَدَرِ

عُمْرِي مَعَ الدَّهْرِ مَوْصُولٌ بِآخِرِهِ وَإِنَّمَا فَضْلُهُ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

وَيَلَّ لِكِسْرَى إِذَا جَاءَتْ فَوَارِسُنَا فِي أَرْضِهِ بِالْقَاتَا الْخَطِيئَةِ السُّمْرِ

أَوْلَادُ فَارِسَ مَا لِلْعَهْدِ عِنْدَهُمْ حِفْظٌ وَلَا فِيهِمْ فُخْرٌ لِمُفْتَخِرِ

/.../

خُلِقْتُ لِلْحَرْبِ أَحْمِيهَا إِذَا بَرَدْتُ وَأَجْتَنِي مِنْ جَنَاهَا يَتَاعِ النَّمْرِ

يَا آلَ عَدْنَانَ سِيرُوا وَاطْلُبُوا رَجُلًا مِثْلَهُ مِثْلُ صَوْتِ الْعَارِضِ الْمَطَرِ²²

لقد بلغت قوته الجسدية وشدة بأسه مبلغا كبيرا حتى وصلت شهرته إلى أرض كسرى فراح يهددهم بجيش لا نظير له في تاريخ الفوارس، فهم لا ينزلون منزلا ولا يطوون موطنًا إلا أنزلوا بعدوهم الهزيمة والهلاك، كيف لا وقائدهم وبطل قبيلتهم على رأس الجيش يطر عدوه بوابل القتل، والسفك حتى تتطاير دماء الموتى فتنهال على الرؤوس كالمطر.

خلق دريد بن الصمة للحرب، فهو فتيلها إذا انطفأت ولهيب نارها إذا اشتعلت، لذا يتفاخر بالإسراع للقتال وقوة إقدامه وبطولته النادرة في اقتحام ساحة الوغى وإحقاق الهزيمة بالأعداء.

تقوم الحماسة الفخرية عند دريد على عمق التعبير والرؤية الصادقة لنفسه واعتزازه بانتمائه لقبيلته وقومه، فلا ينفك فخره بنفسه عن فخره بقومه، ولا أدل على ذلك قرائنه اللغوية الموظفة في شعره، فكثيرا ما يبدأ فخره بضمير "أنا" ثم يتابع فخره بضمير الجمع "نحن" المعبر عن القبيلة والعشيرة:

وَأَبْلَغُ نُمِيرًا إِنْ مَرَرْتُ بِدَارِهَا عَلَى نَابِهَا فَأَيُّ مَوْلَى وَطَالِبِ

قَتَلْتُ بِغَبْدِ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذَوَابَ بَنِ أَسْمَاءَ بَنِ زَيْدِ بَنِ قَارِبِ

وعبسا قتلناهم بحر بلادهم بمقتل عبد الله يوم الذنائب
تكرُّ عليهم رجلتي وفوارسي وأكرهه فيهم صغتي غير ناكب
جعلن بني بدر وشمخا ومازنا لنا غرضا يزحمنهم بالمناكب
فإن تُذبِّروا يأخذنكم في ظهوركم وإن تُقبلوا يأخذنكم في الترائب²³

تجلت قيمة البطولة ضمن أبيات دريد في وصفه لمعاني الرجولة والشجاعة والفروسية، لقد خاض الحروب وتحمل عبأ الثأر لأخيه وقتلى قبيلته، ووفى بوعده لأمه، فقتل ذؤاب بن أسماء بأخيه عبد الله، فكان بذلك أهلاً لقيادة القبيلة وسيادتها.

02- الحماسة المدحية

ارتبطت الحماسة الشعرية عند دريد بن الصمة في عديد قصائده بالميل إلى الثناء وتعداد المآثر والمكارم، سواء ما تعلق بالفرد أو الجماعة، ما جعل حماسته الشعرية تقترب اقترانا متينا بغرض المدح، فكثيرا ما كان يمدح في معرض فخره وورثائه، وكذا وصفه. وقد فطر الشاعر العربي على مدح القيم الإنسانية ومعاني التضحية والإباء من أجل ترسيخها في النفوس. كما كان همُّ الشاعر الأول الرفع من شأن قبيلته وأخلاقها، والتغني بمكارمها وحسن مآثرها من بطولة وكرم وشرف وغيرها²⁴.

ولعل أخلاق دريد وفروسيته جعلته ينأى بمدحه عن التكسب، ليقصر شعره المدحي على الشكر والثناء والإعجاب والتقدير، فلا يمدح إلا من كان صاحب فضل أو فارسا بطلا رمى بنفسه من أجل الجماعة والثأر، ليجعل بذلك من مدحه وسيلة لخدمة القبيلة وتحقيق أهدافها²⁵، فهذه قصيدة يمدح بها دريد "يزيد بن عبد المدان" الذي أعتق الأسرى من قوم دريد وجيرانه، ورد مال جاره، محسنا بذلك إلى قبيلة دريد بعدما مدحه دريد خدمة لقبيلته وجيرانه من الأحلاف:

مَدَحْتُ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَدَانِ فَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ فَتَى مُمَدَّحٍ
إِذَا الْمَدَدُ زَانَ فَتَى مَعَشَرٍ فَإِنَّ يَزِيدَ يَزِينُ الْمَدَحَ
حَلَلْتُ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ فَأُورِي زِنَادِي لَمَّا قَدَحَ
وَرَدَّ النِّسَاءَ بِأَطْهَارِهِا وَلَوْ كَانَ غَيْرُ يَزِيدٍ فَضَحَ
وَفَكَ الرَّجَالَ وَكُلَّ إِمْرِي إِذَا أَصْلَحَ اللَّهُ يَوْمًا صَلَحَ
وَقَلْتُ لَهُ بَعْدَ عِتْقِ النِّسَاءِ وَفَكَ الرَّجَالَ وَرَدَّ اللَّقْحَ
أَجْرَ لِي فَوَارِسَ مِنْ عَامِرٍ فَأَكْرَمَ بِنَفَحَتِهِ إِذْ نَفَحَ²⁶

تتجلى مروءة "يزيد بن عبد المدان" في حسن تعامله مع الأسرى، والحفاظ على النساء وضعاف القوم، وهو ما جعل دريدا يُعجب به، فيجعله أهلاً لمدحه والثناء على فروسيته وكرمه، فكانت أخلاق الرجال الحقّة هي مدعاة الحماسة المدحية لدى الشاعر، ليصل إلى النفوس ويجعل من أخلاق الحرب مثالا يقتدى به، وهديا يُستنّ في خوض غمارها والتعامل مع آثارها.

إنّ أكبر ما تخلفه الحرب من خسائر وأهوال هو موت الفرسان وأبطال القبيلة في ساحة الوغى، ليصيروا رموزا بطولية بين عشيرتهم. كما أن عبأ تخليدهم يقع على عاتق الشعراء، لذا ينحون لمدحهم وتعداد مناقبهم، أخذاً بنهجهم وفروسيتهم، وليس بين مدح الموتى وورثائهم بين، فالإي المديح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب والشكر، وكل ما تعلق بالصفات الحميدة والأخلاق الحسنة²⁷.

يتصل الرثاء بالحماسة اتصالاً وثيقاً لأنه موجه إلى نذب الأبطال والفرسان في ساحات القتال والحرب والشاعر بذلك يثير حقد القبيلة، ويشدّ هممها للأخذ بالثأر والنيل من العدو. وقد اصطبغ الرثاء بهذه الصبغة حتى صار سنة من سننه²⁸.

ودريد بن الصمة شاعر فارس شهد موتى أقرانه من أبطال قومه وعلى رأسهم عبد الله بن الصمة. شقيقه الذي رثاه في أكثر من موضع من ديوانه الشعري، وعدّد مناقبه وفاجعة فقده التي ألّمت بالأهل والعشيرة يقول:

دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقُعْدَدٍ

أَخْ أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ مِنْ لِبَانِهَا بِثَدْيِ صَفَاءٍ بَيْنَنَا لَمْ يُجَدِّدْ

تَنَادَوْا فَقَالُوا أَرَدَتِ الْخَيْلُ فَارِسًا فَقُلْتُ أَعْبَدُ اللَّهَ ذَلِكَمُ الرَّدْيِ

غُدَاةَ دَعَانِي وَالرِّمَاحُ تَنْوُشُهُ كَوَقْعِ الصِّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدِّدِ

وَكُنْتُ كَذَاتِ الْبَوِّ رِيْعَتٍ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جَلْدٍ مِنْ مَسَكٍ سَقْبٍ مُجَلِّدِ

فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنْهَضَتْ وَحَتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِ

طَعَانِ إِمْرِيَّ أَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرَ مُخَلِّدِ

فَمَا رِمْتُ حَتَّى خَرَفْتَنِي رِمَاحُهُمْ وَغَوِيرْتُ أَكْبُو فِي الْقَتَا الْمُتَقَصِّدِ

وَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَائَهُ فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشَ الْيَدِ

وَلَا بَرَمًا إِذَا الرِّيحُ تَنَاقَحَتْ بِرَطْبِ الْعِضَاهِ وَالضَّرِيعِ الْمُعْضَدِ

كَمِيشِ الْإِزَارِ خَارِجٍ نِصْفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى الْعِزَاءِ طَلَعُ أَنْجَدِ

رَنْسِيسُ خُرُوبٍ لَا يَزَالُ رَبِيبًا مُشِيحًا عَلَى مُحَقَّقِ الصُّلْبِ مُلَبِّدِ

صَبُورٌ عَلَى رُزْءِ الْمَصَانِبِ حَافِظٌ مِنَ الْيَوْمِ أَدْبَارِ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ

تَرَاهُ خَمِيسَ السَّبَطِ وَالزَّادُ حَاضِرٌ عَتِيدٌ وَيَعْدُو فِي الْقَمِيصِ الْمُقَدِّدِ²⁹

يصوّر دريد في مشهد رثائي حزين مقتل أخيه عبد الله في ساحة الوعى بين حوافر الخيل "أردت الخيل فارسا"، وقد كان قتله فوزا محققا للأعداء، كيف لا وقد تمكنوا من فارس بطل من فرسان هوازن يعرف بشدة بأسه وصبره في القتال؛ حيث كان يقاتل جنباً إلى جنب مع أخيه دريد، وقد لَبى دريد نداء أخيه بعد طعنه بالرماح فارتّمى دريد يطاعن عنه الخيل، ويقتل به عشرات الفرسان حتى نالت منه الرماح والسهام.

لقد جمعت مرثية دريد بين فخره بنفسه ورثائه لأخيه، فكلاهما بطل مغوار أدرك مهمته في الحياة، وناجح عن مبادئه ليُقتل الأول ويكتب في سجل أبطال القبيلة، ويبقى الثاني ليثار ويواصل مشوار فروسيته.

ودريد في رثائه لأخيه كان أقرب إلى التأبين وتعداد المناقب منه إلى الذنب والبياء، وهو ما يميز مرثي دريد عن غيره. وإن كان قد عمد إلى العزاء في أعقاب الرثاء إلا أن التأبين هو السمة الغالبة، ومرد ذلك بطولته وفروسيته التي تعلوا به عن مستوى الذنب والضعف. غير أن ذلك لم يمنع دريدا من إبراز عاطفته الذاتية معبرا عن الوجدان الجماعي في أغلب مرثياته لأخيه وأقاربه³⁰.

غدا عبد الله بن الصمة في شعر أخيه أنموذجا إنسانيا مكتملا، جمع بين الخصال الحميدة والطباع القوية، فإلى جانب بسالته وشجاعته في الحرب "رئيس حروب"؛ حيث كان قائدا وسيّدا، كان كذلك جوادا صبورا على الأرزاء، مثالا للجلم والأناة، يصيبه الجوع والفقر فيصبر ولا يجزع، بل كان مثالا للإيثار فكلمّا مسّه الفقر كان أكثر سماحا وإنفاقا لما في يده:

وَإِنْ مَسَّهُ الْإِقْوَاءُ وَالْجَهْدُ زَادَهُ سَمَاحًا وَإِتْلَافًا لِمَا كَانَ فِي الْيَدِ³¹

عبد الله بن الصمة بطل عربي تبني موقفه ودافع عن حماه بنفسه وماله. جمع في شخصية الفارس لديه بين البطولتين: البطولة الحربية والبطولة الأخلاقية، ليحقق بذلك العنصرين الحيويين للبطولة العربية وهما: الإقدام في المواقف الفاصلة التي لا تقبل التراجع والانهازم، ورسم الأهداف السامية والقيم النبيلة من أجل تعزيزها في النفوس والتحمس لتبنيها³².

يفخر دريد بكرم أخيه وفروسيته بأسلوب قوي ينضح بالأسى والحزن على فقد الميت، فبفقدته تفقد تلك الصفات وترزأ، فمثلا يبكي الشاعر عبد الله، يبكي أيضا تلك الصفات الخيرة التي يسقطها على الميت.

الشعور بالفراغ الذي خلفه موت عبد الله بن الصمة، وارتباط القتل البطل بالقبيلة ارتباطاً وثيقاً هو ما فجر إحساس دريد بالمصيبة التي ألمت بهم، وانفعاله المباشر بالواقعة في ساحة الوغى، ورغم تسليم دريد بعدم خلود الإنسان وفطرة موته، إلا أنه يحاول في مراثيته تعليل الموت بأسباب تدفع لطلب الثأر والاستماتة من أجله. كما أن الشاعر ومن جهة ثانية يخفف ألم المصيبة بإيراده لطابع العلاقة الأخوية المتينة التي تربطه بأخيه؛ حيث كان مطيعاً له يعظم حضرته في القول والحوار وجميع معاملاته³³، يقول دريد:

وَطَيْبَ نَفْسِي أَنَّنِي لَمْ أَقْلُ لَهُ كَذَبْتَ وَلَمْ أَبْخُلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي³⁴

03- الحماسة الهجائية

الهجاء خلاف المدح، فإذا كان الشاعر يعدد المناقب والأخلاق الحميدة مادحاً، فإنه إذا هجا صوّر نقیض تلك الفضائل معبراً عن عاطفة الغضب والاحتقار والسخرية، فالغدر ضد الوفاء والجبن ضد الشجاعة، والبخل ضد الكرم ولعل أبلغ الهجاء لدى العرب في الجاهلية ما ارتبط بتصوير مثالب وعيوب النفس³⁵.

زخر قصيد دريد بن الصمة الحماسي بعدد الأشعار الهجائية، التي قالها في شأن خصومه وأعدائه متهماً ما ساءلهم في الحرب والسلم، وكان بذلك لسان قومهم وحامي قبيلته، وكان هجاؤه أشد من السيف على نحور أعدائه يقول دريد فيه هجاء "زيد بن سهل المحاربي" حين أغار على غطفان ثائراً لأخيه عبد الله:

فَلَيْتَ قَبُوراً بِالْمَخَاضَةِ أَخْبَرْتَ فَتَخَبَّرَ عَنَّا الْخُضْرُ خُضَرَ الْمُحَارِبِ

تَمَنَيْتَنِي زَيْدَ بْنَ سَهْلٍ سَفَاهَةً وَأَنْتَ إِمْرُؤُ لَا تَحْتَوِيكَ مَقَانِبُ

وَأَنْتَ إِمْرُؤُ جَعَدُ الْقَفَا مُتَعَكِّسٌ مِنْ الْأَقْطِ الْحَوْلِيِّ شَبْعَانُ كَانِبُ³⁶

ترتبط الحماسة الهجائية بميدان الحرب والشجاعة والفضائل أكثر من ارتباطها بالمیادین الأخرى، وذلك لأن الشاعر يركز في مثالب خصمه على مكانته في الحرب وبين فرسان القبائل، ودريد يصوّر زيد بن سهل في صورة مستهجنة حين جرّده من الفروسية والبطولة "وأنت امرؤ لا تحتويك مقانِب"، أي لا يحتويك جيش ولا تقبلك الفوارس بينها، وهو تجريد صريح لزيد بن سهل من معاني الفروسية والبطولة، ولا أشد على العربي بإدخاله دائرة الجبن والهوان. كما سلك دريد مسلك السخرية من الشكل الخارجي للخصم فصوّره مثني غصون القفا متقبض اللحية، بنيس المنظر، فلم يكن أهلاً للقاء فارس كدريد، إذ من السفاهة أن يلتقي برجل غير كفء له.

ينبع هجاء دريد من طبيعة البيئة التي يعيش فيها، فهجاؤه منصب على كل ما يناقض معاني الأخلاق التي يحياها العربي، والشجاعة واحدة من أعلى تلك القيم والمثل. لذا يندر أن نجد دريدا يهجو خصمه دون أن ينسب لنفسه وقومه المفاخر والمحاسن. فكلمة نفى خصلة عن خصمه نسبها لنفسه، يقول في هجائه "لآل سفيان" الذين نقضوا العهد مع أخيه عبد الله وأخذوا الغنائم بعد مشاركتهم إياه:

يَا آلَ سُفْيَانَ مَا بَالِي وَبِالْكُفِّ أَنْتُمْ كَثِيرٌ وَفِي الْأَحْلَامِ عُصْفُورُ

يَا آلَ سُفْيَانَ مَا بَالِي وَبِالْكُفِّ هَلْ تَنْهَوْنَ وَبِالْقَوْلِ مَأْثُورُ

هَلَا نَهَيْتُمْ أَخَاكُمْ عَنْ سَفَاهَتِهِ إِذْ تَشْرَبُونَ وَغَاوِي الْخَمْرِ مَدْحُورُ

إِنَّ إِمْرَأَةً بَاتَ عَمْرُؤُ بَيْنَ صِرْمَتِهِ عَمْرُؤُ بْنُ سُفْيَانَ ذُو السِّفَيْنِ مَغْرُورُ

لَا أَعْرِفُنَّ لَمَّةً سَوْدَاءَ دَاجِيَّةً تَدْعُو كِلَاباً وَفِيهَا الرُّمْحُ مَكْسُورُ

إِذَا غَلِبْتُمْ صَدِيقاً تَبْطِشُونَ بِهِ كَمَا تَهْدِمُ فِي الْمَاءِ الْجُمَاهِيرُ

أَنْتُمْ مَعَشَرٌ فِي عِرْقِكُمْ شَنْجٌ بُزْخُ الظُّهُورِ وَفِي الْإِسْتَاهِ تَأْخِيرُ

يَا آلَ سُفْيَانَ إِنِّي قَدْ شَهِدْتُكُمْ أَيَّامَ أَمْكُمُ حَمْرَاءَ مِثْشِيرُ

لَنْ تَسْبِقُونِي وَلَوْ أَمَهَلْتُكُمْ شَرْفًا عُقْبَى إِذَا أَبْطَأَ الْقَبْجُ الْمَخَاصِيرُ

إِلَى الصُّرَاخِ وَسِرْبَالِي مُضَاعَفَةٌ كَأَنَّهَا مُفَرِّطٌ بِالسِّيِّ مَمْطُورُ

/.../

إِذَا طَرَدْنَا كَسَوْنَا الْخَيْلَ أَنْضِيَّةً وَإِنْ طَرَدْنَا كَأَنَّا خَلْفَنَا زُورُ³⁷

آل سفيان ذوو همم صغيرة تناقض همم الكبار، فهم أهل نفاق وقوم لا ينهاون عن السوء، ينتابهم الغرور رغم جبنهم وقصر أسلحتهم، فهم ليسوا أهلاً للحرب ولا للعهد، وتاريخهم معروف لدى الشاعر ومحفوظ. وفي المقابل آل الصمة وعلى رأسهم دريد فارسهم وقائدهم، أهل الشرف والعهد والبطولة، إذا أسرجت خيولهم وهُيئت رماحهم لا يخشون أحداً فهم أهل للرهيبة والخوف.

لم تخرج معاني الهجاء في قصيدة دريد عن اللوم والعتاب، ثم السخرية. وهو كفارس يصب اهتمامه على القيم النبيلة المسلوبة، إذ كيف للحليف أن ينقض حلفه ويستأثر بالغنائم من نفسه كما فعل شراحيل مع أخيه عبد الله. فلم تعهد العرب أخلاقاً كهذه، بل كان العربي يستमित من أجل إنفاذ عهده ونصرة حلفائه، لذا جاءت لهجة الهجاء حادة تجاه آل سفيان وما صنعه أخاهم مع عبد الله، وبذلك تخطى دريد هجاء الفرد لينال من القبيلة لأن الفرد صورة لقبيلته سيما إذا تبنت القبيلة مواقفه ودافعت عنه. ليرسم بذلك صورة مشرقة -مناقضة- لقبيلته وبطولاته الحماسية مزاجاً بين الهجاء والفخر في قصيدته.

إن معظم هجاء دريد بن الصمة ما جاء في طيات حماسته الشعرية والإشادة بالفروسية والتفاخر حتى لا نكاد نعثر على قصيدة هجائية تخلو من الفخر والمدح. جاء في هجائه لعبد الله بن جُدعان التيمي:

هَلْ بِالْحَوَادِثِ وَالْأَيَّامِ مِنْ عَجَبٍ أَمْ بِإِبْنِ جُدْعَانَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ كَلْبٍ

إِسْتُ حَمِيْتُ وَهِيَ فِي عِمْ رَبَّتْهُ فِي يَوْمٍ حَرَّ شَدِيدِ الشَّرِّ وَالْهَرَبِ³⁸

يفتح دريد نصه الهجائي بالنيل الشديد من ابن جدعان، حيث يصفه بالجبن والعجز "إسْتُ" عند اللقاء، يفر من عدوه ويكتفي بإرسال إسته فزعا ورعبا، فهو ليس بفارس لاسيما إذا كان عدوه من هوازن قبيلة دريد التي لا تفر ولا تجبن:

إِذَا لَقِيتَ بَنِي حَرْبٍ وَإِخْوَتَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ عَطِينَ الْجِلْدِ وَالْأَهْبِ

لَا يَنْكَلُونَ وَلَا تُشَوِي رَمَاحُهُمْ مِنْ الْكُمَاةِ ذَوِي الْأَبْدَانِ وَالْجَبِ

فَاقْعُدْ بَطِيناً مَعَ الْأَقْوَامِ مَا قَعَدُوا وَإِنْ غَزَوْتَ فَلَا تَبْعِدْ مِنَ النَّصَبِ

فَلَوْ تَقَفْتُكَ وَسَطَ الْقَوْمِ تَرَصُّدُنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا بِجَنْبِ الْمَرْجِ مِنْ حَرْبِ³⁹

التناوب بين الهجاء والفخر أبرز سمات الحماسة الهجائية لدى دريد، فعبد الله بن جدعان جبان ولا يملك من مقومات الفروسية والبطولة شيئاً، حتى ولو تجهز في جيش، لأنه سيقا تل بني حرب -بطن من هوازن- قوم دريد الذين لا يفرون وضرباتهم قاضية قاتلة، عدتهم الحربية كاملة وفرسانهم أشداء، ثم يختم هجاءه بمقابلة ضدية بينه وبين خصمه إذ جعل من نفسه صقرا جارحا يتربصه عدو ضعيف هو طير الخُبَارِ الذي لا يقوى على شيء.

يشيد دريد ببسالة قومه في الحرب وما ينزلونه بالعدو من هزائم وقتل في إشارة إلى نقص قيمة الشجاعة عند مهجوه عبد الله بن جدعان، وهي من القيم التي طالما تغنت بها العرب في الجاهلية وعُدَّ الخروج عنها مروفاً عن ميثاق الأخلاق والمثل.

كما تجدر الإشارة إلى أن هجاء دريد لم يكن فاحشا ولا بذنياً، ويكتفي بأداء المعنى المقصود دون تكلف أو قذع، ولا شك في ذلك؛ لأن طابع الفروسية يغلب على شخصيته الشعرية فلا تنفك قصائده عن مقومات خلقه.

04- الحماسة الوصفية

يمثل الوصف عمود الشعر وأكبر أبوابه، بل هو الشعر نفسه وما بقية الأبواب إلا تبعاً له، فجميع أغراض الشعر وصف، فالفخر وصف، والرياء وصف، والمدح وصف، والنسيب أيضاً وصف. وإذا اختلف النقاد وعلماء الأدب في أولية ما نطق به شعراء العرب أهو الوصف أم الحماسة، فإن كانت الحماسة أول ضروب الشعر، فإن الشعر الحماسي يرجع إلى الوصف، لأنه وصف لضروب الشجاعة والفروسية، وعرض لصور الانتصارات والبطولات والأبطال⁴⁰.

عمد الشاعر العربي إلى وصف كل ما تقع عليه عينه أو تستسيغه جوارحه، فيصور مشاهدته بأسلوب شعري يختلف من شاعر إلى آخر، ومن حقبة زمنية إلى أخرى، وذلك لارتباط وسائل التعبير بالحياة والطبيعة ارتباطاً وثيقاً ولعل حياة دريد المليئة بالحروب والغزوات والثارات هي ما صبغ وصفه الشعري صبغة حسية لم يمعن في خصائصها إمعاناً دقيقاً، نتيجة انشغاله بسرد الانتصارات والمفاخر القبلية، فكان وصفه قائماً على الحدود الخارجية للمشاهد دون

أن يلونها بوجدانه الخاص. غير أن هذا لا ينفي أن يكون دريد قد تولى وصفه لعدد الصور والمشاهد معملا خياله، فأبدع بذلك واقعا موازيا من صنعه الخاص⁴¹.

في معرض رثائه لعبد الله يصف دريد المعركة والقتال وصفا حسيا وعاطفيا ارتبط بشعور الأسى والرغبة في الثأر لمقتل أخيه:

تَنَادُوا فَقَالُوا أَرَدْتَ الْخَيْلَ فَارِسًا فَقُلْتُ أَعْبَدُ اللَّهَ ذَلِكَمُ الرَّدِي
غداة دعائي والرماح تتوشُّهُ كَوَقَعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الْبَوِّ رِيْعَتِ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جَلْدٍ مِنْ مَسَكٍ سَقْبٍ مُجَلَّدِ
فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَبَدَّدْتُ وَحَتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِ
طِعَانِ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرَ مُخَلَّدِ 42

إن براعة الوصف في أبيات دريد نابعة من تصويره العميق لطبيعة العلاقة الأخوية الرابطة بينه وبين أخيه القاتل عبد الله، فهو من أمه وأبيه، رضعا لبنا واحدا لم يجف بعد لأن عطف أمهما لم يجف قط. لذا ارتمى دريد ملييا نداء أخيه واصفا استماته في القتال بعد أن أردت الفرسان فارس الميدان، عبد الله الذي لم يغلب عن ضعف ولا تراجع بل غلبته الكثرة في الميدان، فلشدة بأسه اجتمع عليه فرسان الجيش ليتمكنوا من طرحه أرضا، فأقبلت عليه الرماح تتناشيه من كل جانب، فتقع على جسده وقوع الشوكه يمرها على الثوب الناسج. ليُقْبِلَ دريد مفجوعا في أخيه كفجع الناقة التي ذبح سبقها فتفزع إليه تشمه وتتحسس⁴³.

يصف دريد عمق فجيعة فيجعل نفسه أمّا منكوبة في وليدها، يقبل إلى جثمان أخيه وقد خرقت رماح الفرسان جسده، طاعنا عنه الخيل حتى تغير لونه إلى الأسود مقاتلا بذلك ثائرا لأخيه قتالا صادقا مفديا إياه نفسه.

لقد رسم دريد لمأساته الحربية لوحة فنية بالغة الحس والجمال، معبرا بذلك عن عمق دافعه الحماسي في الثأر لأخيه خلال معركة موتة. وفي موضع آخر من قصيده يصف لنا مشهدا حماسيا حربيّا لمعركة قبيلة هوازن:

غَدَاةَ رَأُونَا بِالْغَرِيفِ كَأَنَّنَا حَبِيٍّ أَدْرَتْهُ الصَّبَا مُتَهَلِّلِ
بُمَشْعَلَةٍ تَدْعُو هَـوَازِنَ فَوْقَهَا نَسِيجٍ مِنَ الْمَادِي لَأَمِّ مَرْفَلِ
لَدَى مَعْرَكٍ فِيهَا تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ يُنَادُونَ مِنْهُمْ مَوْثِقٌ وَمَجْدَلُ
نَجْدَ جَهَاراً بِالسُّيُوفِ رُؤُوسَهُمْ وَأَرْمَاخُنَا مِنْهُمْ تَعْلٌ وَتَهْلُ
تَرَى كُلَّ مُسَوِّدٍ الْعِذَارِينَ فَارِسِ يُطِيفُ بِهِ نَسْرٌ وَعَرَفَاءُ جِيَالُ 44

يتفجر المشهد الشعري لدى دريد من شراسة الحرب وقوة القتال فيها، فجيش هوازن كالسحاب العظيم الذي ينذر بعاصفة الهلاك والموت للخصم، جيش تجهز عدة وعتادا فكانت دروعهم ورماحهم شديدة الوقع على نفوس الأعداء، ثم يقتنص خيال دريد صورة وصفية دقيقة تكني عن سرعة قتالهم وتحكمهم بأسلحتهم، إنهم يجذون رؤوس العدو جهارا، فتقطع من نحورهم، لتنهل رماحهم بقية الأجساد فلا تبقي لهم سوى جثث طافت بها النسور والضباع لتلتهم ما تبقى منها. كما يمثل عتاد الحرب في وصف دريد مادة رئيسية، تدعّم موقفه الحماسي وتقوي صورته الفخرية، فالخيل والرماح والسيوف وكذا الدروع عناصر الفروسية الحقّة، دونها لا يمكن للفارس أداء دوره البطولي، لذا فجاهزيتها من تمام جاهزية الفارس وقوته.

لم يرد وصف دريد لأسلحة الحرب في قصيدته عابرا، وإنما كان وصف الإعجاب والافتخار بما جهزته القبيلة للمعركة، ولا أدل على ذلك من تعابيره الوصفية، فالسيوف صُفِّلَتْ بمهارة وعناية، حتى جذّت الرؤوس بكل يسر وسهولة، والرماح حادة ودقيقة لتصيب الهدف من مرماء البعيد فتزدي الفارس قتिला وإن كان يتقلد فرسه. كما أن دروعهم اللينة رسمت للجيش صورة مضاءة جميلة تضارع لون السماء وصفاءها.

يفرض موضوع الحرب على الحماسة الوصفية لدى دريد توظيف التشبيهات الحسية المادية: "كَذَاتِ الْبَوِّ - طِعَانِ امْرِئٍ - كَأَنَّنَا حَبِيٍّ - نَسِيجٍ مِنَ الْمَادِي..." التي تقوي الصورة وتجعل معانيها واضحة في نفوس الناس وعقولهم، ليكفل بذلك تأثرهم وإقبالهم على حب القتال وسنة الحرب والذود عن القبيلة، فرغم شراسة الحرب إلا أن دريدا لا يبشعها، بل

يجعل منها وسيلة لتخليد القبيلة في تاريخ العرب وأمجادها معتمدا في وصفه على الطبيعة المحيطة به سواء أكانت طبيعة جغرافية أم حيوانية يستمد منها تشبيهاته، وينسج عبرها صوره البديعة واستعاراته البليغة. يركز دريد في وصفه للحرب على نهايتها البطولية؛ حيث يحقق وجيشه النصر والظفر تاركا جثث الأعداء للوحوش البرية، ما يعني أنه حقق لقبيلته مغنما جديدا من المغانم، فالحرب عند دريد شجاعة وخلود ومغنم يضمن للقبيلة استمرارها ومكانتها لذا نجده دائم الحروب والغزو. لقد عاش دريد فارسا ومات فارسا محتفيا بالحماسة والبطولة في جلّه وترحاله، وفي حربه وسلمه، وما تركه من شعر حماسي وبطولات ميدانية تشهد بها كتب التاريخ والأدب خير دليل.

٧- الخاتمة

في ختام رحلتنا البحثية حول موضوع الحماسة وتجليات البطولة في شعر دريد بن الصمة أمكننا الخلوص إلى جملة من النتائج موجزة في الآتي:

- الحماسة أقدم فنون الشعر تناولوا عند العرب منذ العصر الجاهلي لارتباطها الوثيق بحياة الحرب وقيم العروبة التي يحياها العربي.

- تدور معاني الشعر الحماسي حول موضوعات الإشادة بالأمجاد والافتخار بالانتصارات والأخذ بالثارات تعزيزا لمكانة القبيلة وفرسانها.

- البطولة تجلّ من تجليات الحماسة في الشعر العربي عامة وفي قصائد دريد بن الصمة على وجه الخصوص ، فهي تعبير عن معاني الفروسية الحربية والفروسية الأخلاقية على حد السواء.

- البطل والفارس في عرف العرب هو من يتحلّى بمجموع المثل الرفيعة من كرم ونجدة ومروءة، إضافة إلى تميزه بالبطولة الحربية التي تجعل منه سيد القوم وقائد الجند في ساحة الوغى.

- مزج دريد في شعره الحماسي بين مختلف الأغراض الشعرية فكانت الحماسة الفخرية أكثرها حضورا في ديوانه، إذ تعبر عن فخر الشاعر بفروسيته وبطولات قومه وانتصاراتها.

- الحماسة المدحية وجه ثان للفخر لدى دريد؛ حيث خصص لممدوحيه مقطوعات شعرية توجج في نفوس قرّائها الاعتداد بآثر الأبطال وتضحياتهم الجسام.

- الحماسة الهجائية نمط شعري هدف دريد من خلاله إلى التركيز على مثالب القتال لدى الخصوم، وعلى كل ما يناقض معالي الأخلاق التي يحياها العربي ويتبنّاها في حربه وسلمه.

- عبّر دريد بن الصمة عن براعته الشعرية في الحماسة الوصفية، إذ تميز بذوق فني عال أعمل فيه عقله ووظّف مخيلته الشعرية راسما صورا فذة للحرب والقتال والبطولات، فكان بذلك وصفا واقعيّا زاد من قوة المعاني وتبني مواقف الحرب.

لا ندعي أننا أحطنا بموضوع الحماسة وتجليات البطولة في شعر دريد بن الصمة من خلال هذا المقال العلمي، خاصة وأننا اعتمدنا على ديوانه المطبوع وقصائده الموثقة في كتب الحماسة، لكن حسبنا أننا وقفنا عند الحماسة وأغراضها الشعرية كمنعرج جديد في الدراسة، معتمدين على ما بين أيدينا من شواهد شعرية ثابتة، وعليه سيكون الباب مفتوحا لدراسات مستقبلية في هذا الموضوع للكشف عن أغراض شعرية أخرى ارتبطت بحماسة دريد بن الصمة.

- المصادر والمراجع:

أولا- المصادر:

[1]. دريد بن الصمة: الديوان، تح: عمر عبد الرسول، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985م.

ثانيا- المراجع:

[2]. ابن الشجري: الحماسة الشجرية، تح: عبد المعين الملوح وأسماء الحمصي، ق01، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1970م.

[3]. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج01، ط05، دار الجيل، سوريا، 1981م.

[4]. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح وشر: أحمد محمد شاكر، ج02، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، مصر (د.ت)

[5]. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، مج06، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

[6]. أبو تمام الطائي: ديوان الحماسة، تح: عبد المنعم أحمد صالح، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراق، 1980م..

[7]. جليل رشيد فالح: "البطل في شعر الحماسة"، مجلة آداب الرافدين، ع14، 1981م، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق.

- [8]. زهير بن أبي سلمى: الديوان، شر: علي حسين فاعور، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م.
- [9]. سراج الدين محمد: المديح في الشعر العربي، (د.ط)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- [10]. سراج الدين محمد: الهجاء في الشعر العربي، (د.ط)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- [11]. الشنفرى : الديوان، تح وشر: إيميل بديع يعقوب، ط02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996م.
- [12]. شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، ط02، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1984م.
- [13]. عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي (العصر الجاهلي)، ج01، (د.ط)، شركة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، 1949م.
- [14]. الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج02، ط03، ج03، المطبعة الأميرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1978م.
- [15]. مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط02، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان 1984م.
- [16]. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، ط04، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م.
- [17]. محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شر: محمود محمد شاكر، (د.ط)، دار المعارف، مصر 1952م.
- [18]. نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر العربي الجاهلي، ط01، مكتبة النهضة، بغداد العراق، 1964م.

الهوامش والإحالات

- ¹ - أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، مج06، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، مادة(حَمَسَ)، ص: 57.
- ² - الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج02، ط03، المطبعة الأميرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1978م، (حَمَسَ)، ص: 206.
- ³ - ابن الشجري: الحماسة الشجرية، تح: عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، ق01، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1970م، ص: (ي.ط).
- ⁴ - مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط02، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م، ص: 153.
- ⁵ - محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شر: محمود محمد شاكر، (د.ط)، دار المعارف، مصر، 1952م، ص، ص: 39، 40.
- ⁶ - زهير بن أبي سلمى: الديوان، شر: علي حسين فاعور، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م، ص: 107.
- ⁷ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح وشر: أحمد محمد شاكر، ج02، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص، ص: 749، 750.
- ⁸ - المرجع نفسه، ص: 752.
- ⁹ - شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، ط02، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1984م، ص، ص: 18، 19.
- ¹⁰ - مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، ط04، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م، ص: 61.
- ¹¹ - الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج03، المطبعة الأميرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1978م، (بَطَلْ)، ص: 324.
- ¹² - شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، ص: 13.
- ¹³ - نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر العربي الجاهلي، ط01، مكتبة النهضة، بغداد العراق، 1964م، ص: 46.
- ¹⁴ - شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، ص: 14.
- ¹⁵ - نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر العربي الجاهلي، ص، ص: 25، 26.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص: 25.
- ¹⁷ - دريد بن الصمة: الديوان، تح: عمر عبد الرسول، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985م، ص، ص: 96، 97.
- ¹⁸ - الشنفرى : الديوان ، تح وشر: إيميل بديع يعقوب، ط02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996م، ص ، ص: 62، 63.
- ¹⁹ - نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر العربي الجاهلي، ص، ص: 29، 30.

- 20- ابن الشجري: الحماسة الشجرية، ص: 52.
- 21- دريد بن الصمة: الديوان، ص، ص: 18، 19.
- 22- المصدر نفسه، ص: 98.
- 23- المصدر نفسه، ص، ص: 37، 38.
- 24- سراج الدين محمد: المديح في الشعر العربي، (د.ط)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص، ص: 06، 07.
- 25- دريد بن الصمة: الديوان، ص: 21.
- 26- المصدر نفسه، ص: 51.
- 27- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج01، ط05، دار الجيل، سوريا، 1981م، ص: 121.
- 28- نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر العربي الجاهلي، ص: 260.
- 29- دريد بن الصمة: الديوان، ص - ص: 62- 68.
- 30- المصدر نفسه، ص: 21.
- 31- المصدر نفسه، ص: 69.
- 32- جليل رشيد فالح: "البطل في شعر الحماسة"، مجلة آداب الرافدين، ع14، 1981م، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق، ص: 254.
- 33- نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر العربي الجاهلي، ص: 264.
- 34- أبو تمام الطائي: ديوان الحماسة، تح: عبد المنعم أحمد صالح، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980م، ص: 230.
- 35- سراج الدين محمد: الهجاء في الشعر العربي، (د.ط)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص: 06.
- 36- دريد بن الصمة: الديوان، ص، ص: 40، 41.
- 37- المصدر نفسه، ص - ص: 89- 92.
- 38- المصدر نفسه، ص: 46.
- 39- المصدر نفسه، ص، ص: 46، 47.
- 40- عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي (العصر الجاهلي)، ج01، (د.ط)، شركة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، 1949م، ص: 43.
- 41- دريد بن الصمة: الديوان، ص: 20.
- 42- المصدر نفسه، ص- ص: 63- 65.
- 43- عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي (العصر الجاهلي)، ج01، ص: 327.
- 44- دريد بن الصمة: الديوان، ص: 145.